

مفهوم العصبية ونشأة الدولة في الفكر الخلدوني

The concept of asabiyyah and the emergence of the state in Khaldouni thoughtد. زينب بومهدي¹¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، zineb.boumehdi@ummtto.dz

تاريخ الاستلام: 2020/..../.. تاريخ القبول: 2020/..../.. تاريخ النشر: 2020/..../..

ملخص:

يعد ابن خلدون واحدا من أهم فلاسفة التاريخ الذين قدموا نظرية في نشأة الدولة قامت هذه النظرية على فكرة القوة والغلبة من جهة ونظرية العصبية من جهة أخرى، أصبحت من أهم نظريات الفكر السياسي المفسرة لقيام ونشأة الدول وزوالها، إستقرأ من خلالها ابن خلدون السياسي الإسلامي منذ قيامه إلى غاية اللحظة الزمنية للفكر الخلدوني.

ولهذا نروم من خلال هذا المقال الانفتاح على العديد من المفاهيم والتصورات الفكرية التي حاول من خلالها العلامة ابن خلدون تقديم تصور فلسفي تاريخي لأسباب نشأة الدول وقيامها وحتى زوالها واندثارها في الفكر الإسلامي.

كلمات مفتاحية: القوة، الغلبة، الدولة، العصبية، ابن خلدون.

تصنيفات JEL:,, ... (وضع ترميز JEL إجباري)

Abstract:

Ibn khaldun is considered one of the most important philosophers of history who presented a theory on the emergence of the state, this theory was based on the idea of power and dominance on the one hand and the theory of neurosis on the other hand, It became one of the most important theories of political thought.

That is why we seek through this article an openness to many concepts and intellectual perceptions through which the scholar ibn khaldun tried to

present a philosophical historical conception of the reasons for the emergence and establishment of states and even their demise and extinction in islamic thought.

Keywords power, victory, state, nervousness, ibn khaldun .

JEL Classification Codes:

1 . مقدمة:

اعتبرت الدولة تلك الظاهرة السياسية التي شغلت بمواضيعها المتشعبة جل الفلاسفة والمفكرين وحتى السياسيين، فبحثوا في مفهومها واهتموا بشكل كبير في الخوض في أسباب نشأتها وظهورها، وهذا منذ الفكر اليوناني الذي أرسى نظريات في الفكر السياسي، وصولاً إلى الفكر الإسلامي وحتى الفكر الغربي الحديث والمعاصر. و ابن خلدون أحد ممثلي الفكر الإسلامي و أقطابه دون منازع، و هذا لأنه قدم نظرية في تفسير نشأة الدولة كانت بمثابة عصارة تأمل فكري واطلاع على كتب السابقين ونظرياتهم السياسية و معاناة لأحوال المجتمع العربي الإسلامي، و يدرج الباحثون نظرية ابن خلدون* في تفسير نشأة الدولة ضمن نظرية القوة و الغلبة تلك النظرية التي ترى أن الدولة هي نتاج القوة المادية لأن العصبية تولد القوة كما أنها مظهر من مظاهر القوة و من هنا انصب اهتمامنا للبحث في هذا الموضوع رغم أنه تم تناوله من قبل العديد من الدراسات وهذا حتى نستهم ولو بالقليل في هذا الموضوع، وجاءت إشكالية البحث كالتالي: كيف جاءت قراءة ابن خلدون لنشأة الدول في التاريخ السياسي الإسلامي ؟ و ما هي عوامل ازدهار الدول و أسباب زوالها ؟ ما المقصود بالعصبية في الفكر الخلدوني؟ وكيف يمكن لها أن تكون الأساس في قيام الدول وزوالها في وقت واحد ؟ كيف تساهم في نقل السلطة من عهد البداوة إلى عهد الحضارة؟ ما الأسباب التي تؤدي إلى فساد العصبية وزوال شوكتها ومن ثمة انهيار الدول واضمحلالها؟ ماهي نظرة ابن خلدون لحركة التاريخ الإسلامي؟ هل هي تسير في خط مستقيم أم في حركة دائرية؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عليها بالبحث والتحليل مستخدمين المنهج التاريخي الوصفي والمنهج التحليلي من جهة أخرى وهذا في استقراءنا للفكر الخلدوني.

2. مفهوم العصبية :

حتى نتحدث عن الدولة و نشأتها و تطورها علينا التحدث أولاً عن العصبية و هذا لأنها أساس قيام الدولة كما أنها مفهوم معقد يستوجب منا تحليلاً دقيقاً له و لهذا سنحاول تقديم تعريفا لها ثم تبيان دور العصبية في تشكيل الدول لأن ابن خلدون جعل منها مفتاح قيام الدول و انهيارها؛ و إذا كان هو قد عرّف بأنه استخدم هذا المصطلح و أصبح محور مفاهيمه كلها إلا أن هذا المصطلح ليس من المصطلحات التي ابتكرها ابن خلدون لأن العصبية كانت موجودة عند العرب وتعني الحماية والذود عن القبيلة وكذا الدفاع عنها و فخر النسب و عليه " كانت شائعة الاستعمال في اللغة العربية، خاصة بعد الإسلام الذي صرف معناها إلى الدلالة على التنازع و الفرقة و الاعتداد بالأنساب، و ذلك في مقابل الدين الذي يدعو إلى الوحدة و التآخي و تآلف القلوب " (الجابري، 1994، ص 166).

1.2. في المفهوم اللغوي:

حتى نتعرف على العصبية في المفهوم اللغوي علينا بالعودة إلى المعاجم اللغوية ففي لسان العرب لابن منظور ورد أن " العصب: هي الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه، ويعتصب بهم، أي يحيطون به ويشتد بهم، وفي الحديث: ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية، العصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعناه: نصرناه، وعصبه الرجل: قومه الذين يعصبون له ... وعصب القوم: خيارهم وعصبوا به: اجتمعوا حوله" (ابن منظور، ص 2966)، وعليه يفهم من هذا المعنى أن المتعصب للشيء هو الميل الشديد إليه.

و هناك لفظ آخر من الألفاظ المشتقة من نفس المصدر كذلك و هو " التعصب الذي يعني : لغة : التجمع و لكنه لا يعني التجمع الحسي بل التجمع "المعنوي" و بالتالي فهو شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من العصبية التي ينتمي إليها بل هو استعداد دائم في نفس الوقت يدفعه إلى تجسيم هذا الانتماء إلى العصبية بفنائها فيها فناء كلياً، إن الفرد في هذه الحالة يفقد شخصيته بل فرديته، و يتقمص شخصية العصبية " (الجابري، 1994، ص 168) .

و حسب عبد الغني مغربي " فكلمة العصبية كلمة عربية الأصل، مشتقة من لفظ "عصب" الذي يعني حرفيا : ربط، تجمع، شد، أحاط، اجتمع ثم أن عدد من الكلمات المشتقة من نفس الأصل تتضمن نفس الفكرة : عصب (جعل شخصا على رأس حزب)، تعصب. (عصب رأسه بعصاة، كان متعصبا) إنعصب (أصبح قاسيا)، عصب (عمامة)، عصب (نخبة قبلية) (عصاة (جماعة من الرجال) الخ " (مغربي، 1988، ص 145) .

2.2. في المفهوم الاصطلاحي:

يتضح من هنا أن العصبية هي رابطة تعمل على الجمع بين أفراد الجماعة الواحدة ذات صلة دموية أو صلات جوارية، و تجمعهم تلك الرابطة في أوقات الشدة و هذا ما يؤكد عليه ابن خلدون في قوله " و ذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل و من صلتها النعرة على ذوي القربى و أهل الأرحام أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداة عليه، و يود لو يحول بينه و بين ما يصله من المعاطب و المهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصيرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد و الالتحام كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجردا و وضوحها، و إذا بعد النسب بعض الشيء فرمما تنوسي بعضها و يبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبة الأمر المشهور منه ، فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه " (ابن خلدون، 1965، ص 226).

اختلف مفهوم العصبية عند المفكرين باختلاف القراءات للمقدمة فهناك من رآها أنها تعني "التماسك الاجتماعي" أو "روح التضامن" أو "الالتحام القبلي" أو "القرباة بالعصب" أو "الذهنية العشائرية"، غير أن كل هذه المفاهيم قد لا تؤدي إلى المعنى الحقيقي الذي يقصده صاحب المقدمة، ففي قراءة الحبابي للعصبية يرى أنها الروابط الحيوية والروح العشائرية القائمة على لحمة الدم، فهي الأساس الذي من خلاله تقام كل العلاقات السياسية والاجتماعية بين أفراد القبيلة الواحدة، وهي في نفس الوقت القوة التي تتلاحم بها مجموعة من القبائل لتحتمي وتقوي شوكتها، وهي قوة الدم المشترك التي تحرك كل ميادين

الحياة داخل القبيلة وتجعله يلتف حول رئيس عسكري أو سلطة أسرية واحدة لتكون بذلك اللبنة الأولى لقيام الدولة (الجبالي، 2004، ص 86).

3. ضرورة الدولة من ضرورة الاجتماع البشري :

الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع العيش دون اجتماع و هذه النزعة حتى و إن كانت طبيعية فيه فهو تدفعه إليها حاجته، و هذا للحصول على معاشه لأنه لا يستطيع أن يحققها دون وجود الآخرين، فالحاجات الإنسانية تلعب دورا بارزا في نشأة العمران البشري و تطوره وبقاء الإنسان، و من ثم الجماعات البشرية ككل و لكن الإنسان في نفس الوقت ميّال إلى حب التملك و السيطرة و لهذا تحدث المنازعات و الاختلافات بين بني البشر، وهذه الفكرة هي نفسها التي سنجدها عند الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes (1679 . 1855) القائلة أن "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، و عليه و حتى يضمن بقاءه و استمراره يحتاج إلى حماية و قانون و سلطة أو بلغة ابن خلدون هو بحاجة إلى الوازع لأنه ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري . و عليه فدور الوازع هو ردع المعتدي و إيقافه عن التعدي على الآخرين و هذا ما أقره ابن خلدون حين قال " ثم إن الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه و تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان و الظلم" (ابن خلدون، 1965، ص 244).

جاءت فكرة الوازع عند ابن خلدون كحل للتناقض الحاصل بين ما نسميه اجتماعية الإنسان (الإنسان مدني بطبعه) لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين و هذا حتى يستقيم وجوده، و من جهة أخرى الطبع العدواني الموجود في البشر لأنهم " و إذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة و اقتضاء الحاجات، و مدّ كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم و العدوان بعضهم على بعض، و يمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب و الأنفة و مقتضى القوة البشرية في ذلك ، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة ، و هي تؤدي إلى الهرج و سفك الدماء، و إذهاب النفوس، المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، و هو مما خصه الباربي سبحانه بالمحافظة، و استحال بقائهم فوضى دون

حاكم يزع بعضهم عن بعض و احتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع و هو الحاكم عليهم، و هو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم " (ابن خلدون، 1965، ص 333) .

ويستمر ابن خلدون في التأكيد على هذه الفكرة فهو يقول هذه المرة أن "أخلاق البشر فيهم الظلم و العدوان بعض على بعض ، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصدده وازع " (ابن خلدون، 1965، ص 422)، و عليه جاءت الحاجة إلى الوازع مفروضة من طبيعة الإنسان ذاته باعتباره كائنا مجبولا على الخير و الشر معا : على التعاون و العدوان، إن قيام الحياة الاجتماعية و بالتالي بقاء الإنسان يتطلب وجود نوع من السلطة تحفظ للمجتمع تماسكه، و تعمل على تقوية التعاون بين أفرادها، و كبح عدوان بعضهم على بعض سواء كأفراد أو كجماعات .

و بالرغم من أن الحاجة إلى الوازع و من ثم الاستعداد إلى تقبل الرياسة فرضتها طبيعة البشر و بالرغم من أن هناك تشابه بين الإنسان و بعض الحيوانات التي تصنع تجمعات و تميل إلى الانقياد و الإتياع مثل النحل إلا أن في الحيوان موجود بمقتضى الفطرة و الهداية، في حين أن مع الإنسان هذا "الاستعداد موجود بمقتضى الفكر و السياسة وهو استعداد طوعي أرايدي اختياري ، تفرضه الحاجة و تدعو إليه ضرورة الاجتماع الإنساني " (النبهان، 1998، ص 119)؛ فالوازع هو بمثابة السلطان القاهر و لا يمكن له أن يكون قاهرا ما لم يعتمد على عصبية هي بدورها قاهرة، تمكنه من التحكم و التغلب و ممارسة الملك التام من جباية الأموال و بعث البعوث و حماية الثغور .

قسّم ابن خلدون العمران إلى عمران بدوي و عمران حضري و كان هذا التقسيم نتيجة اختلاف طرق كسب المعاش، و بعدها رأى أن اختلاف العيش بين البداية و المدينة يفرض اختلاف الوازع، لأن الحياة في البادية قائمة على البساطة و الفطرة و هذا راجع إلى الفلاحة باعتبارها النحلة المعاشية السائدة هناك، في حين أن الحياة في المدن تكون معقدة و هي قائمة على الصنائع و لذلك فهي " مركبة و علمية تتصرف فيها الأفكار و الأنظار بمختلف التصرفات و الحيل " (ابن خلدون، 1965، ص 899) .

إذن يختلف الوازع من البادية إلى المدينة لأن بساطة العيش في البادية تفرض ضرورة أن يكون الوازع طبيعيا و فطريا متوافقا مع نظم العيش هناك، في حين أن الحياة المعقدة التي تعاش في الحضر ستضفي نوع

من التعقيد و كذا التركيب على الوازع السائد فيها " فالوازع عن الظلم في الحضرة إنما هو السلطان القائم بالدولة الغالبة ، وفي البدو ... فالمشايخ و الكبراء لما وقر لهم في النفوس من الوقار و التحلة " (الأزرق، 1977، ص 51)، و لا يتوقف الأمر عند هذا فقط فكذلك العدوان يختلف باختلاف نمط الحياة فالعدوان في البادية يختلف عن العدوان في المدينة ، و عليه سيختلف الوازع باختلاف العدوان (الجابري، 1994، ص 164) .

فهناك عدوان داخلي و عدوان خارجي فالأول متعلق بالأفراد حين يعتدون على بعضهم البعض سواء كان ذلك في البدو أو في الحضرة، و الثاني متعلق بالعدوان الخارجي و هو عدوان على المدينة كلها و هذا ما يؤكد ابن خلدون في قوله " فأما المدن و الأمصار فعدوان (الناس) بعضهم على بعض تدفعه الحكام و الدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه، فإنهم مكبوحوں بحكمه القهر و السلطان عن التظالم، إلا إذا كان ذلك عن الحاكم نفسه و أما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا، أو العجز عن المقاومة نهارا، أو يدفعه زياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد و المقاومة، هذا فيما يتعلق بالوازع في العمران الحضري و أما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم و كبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار و التحلة، و أما حللهم فإنما يزود عنها من خارج حامية الحي أنجادهم و فتياهم المعروفين بالشجاعة فيهم . و لا يصدق دفاعهم و زيادهم إلا إذا كانوا عصبية و أهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم و يخشى جانبهم، إذ نصره كل واحد نسبه و عصبية أهم " (ابن خلدون، 1965، ص 422، 423) .

و عليه ينطلق ابن خلدون من مجموعة مسلمات حتى يثبت من خلالها ضرورة قيام الدولة و هذه

المسلمات هي :

1. الإنسان اجتماعي بطبعه
2. العمران لا يتحقق إلا بالاجتماع
3. الاجتماع لا يتم إلا بوجود الوازع و هذا راجع للطبيعة العدوانية في البشر
4. أداة الوازع هي القهر و القوة و الغلبة و السلطان

إذن و كما بينا فيما سبق يحتاج الإنسان إلى سلطة توفر له الحماية أو كما سماها ابن خلدون الوازع و من هنا ضرورة الاجتماع البشري هي التي فرضت وجود الدولة، و لكن الدولة لا تنشأ إلا بالعصبية فكيف يكون ذلك؟ هذا ما سنعمل على تبيانه في ما يلي .

4. العصبية و الدولة / القوة أساس نشأة الدولة :

احتل موضوع الدولة حيزا هاما في فكر ابن خلدون و في كتاباته، و في كتاب المقدمة بالتحديد فهو قد خصص ثلث المقدمة من أجل الخوض في هذا الموضوع، و أن مباحث الباب الثالث تتناول الدول العامة و الملك و الخلافة و المراتب، فالدولة كانت المحور الأساسي في الفلسفة الخلدونية و لكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن ابن خلدون و رغم أنه يستخدم هذا المصطلح بشكل كبير في المقدمة إلا أنه لم يقدم له تعريفا محددًا و واحدا ، فهي تظهر - الدولة - عنده بمفهوم الملك تارة و تظهر أحيانا أخرى كمرادف للسلطان فهو حين يقول : " إن العمران كله من بداوة و حضارة و ملك له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا " (ابن خلدون، 1965، ص 371) ؛ و في مواضع أخرى نجد يتحدث عن الدولة و الملك كل في سياقه ، و كأنه كل يختلف عن الآخر فهو يقول " إن الدولة و الملك هي صورة الخليفة " (ابن خلدون، 1965، ص 271) ، ليعود مرة أخرى و يأتي كلامه ليوحي بأن أحدهما سابق في وجوده عن الآخر إذ يقول " إن الدولة إنما يحصل لها الملك و الاستيلاء بالغلب " (ابن خلدون، 1965، ص 375) وهنا تظهر الدولة سابقة على الملك ، و في حديثه عن العصبية يقول " إن الملك و الدولة غاية للعصبية " (ابن خلدون، 1965، ص 371) ؛ و هنا نجد يجمع بينهما لكن يرجع مرة أخرى ليأخذ أحدهما مكان الآخر حتى يعبر عن نفس المعنى فيقول " إن الملك غاية طبيعية للعصبية " (ابن خلدون، 1965، ص 202).

و تلعب العصبية أدورا عدة في الحياة الاجتماعية و كذا السياسية فهي تحمل الأفراد على التعاضد فيما بينهم لأنه و من خلالها فقط تكون الحماية و المدافعة، كما أن البشر يميلون إلى إقامة الملك و لإقامته يتطلب ذلك المنافسة و الصراع و من ثم الاقتتال حتى يحصل الملك، و هذا أمر طبيعي في البشر، و هذا بدوره يحتاج إلى العصبية لأن الرئاسة في نظر ابن خلدون لا تكون إلا بالغلب و الغلب إنما يكون بالعصبية

" و العصبية هي سبب مباشر لقيام الملك و هي سبب مباشر أيضا لانهيار ذلك الملك، لأن العصبية هي محور أساسي من المحاور التي اعتبرها ركائز الفكر السياسي، و بخاصة في مجتمع قبلي تتحكم فيه معايير القوة و السيطرة و التغلب، و هذه عوامل لا يمكن بروزها إلا في ظل عصبية قوية تعطي معنى التكتاف و التلاحم و التناصر " (النبهان، 1998، 155). نصل مع ابن خلدون إلى أن كل شيء في الدولة متعلق بالعصبية وحالتها وكذا حال عصبية الأقوام الداخلة تحت لوائها فالتشييد والبناء واتساع الرقعة وقوة السلطة كل ذلك مرتبط بالعصبية، ومدى قوتها، والقوة المقصودة في الفكر الخلدوني لا تعني إطلاقا كثرة العدد بقدر ما تعني قوة التلاحم والتعاقد، وكذا الانسجام بين العناصر المكونة لها.

و عليه تنشأ الدولة في الفكر الخلدوني نتيجة القوة أو التغلب القائم على العصبية لأنها هي المحرك لسير التاريخ و بقوتها تقوم الدولة و بضعفها تضعف الدولة، و تأتي أقوال ابن خلدون متتالية لتؤكد قيام الدولة على القوة و أن الملك هو التغلب و الحكم بالقهر فهو يقول : " الرئاسة لا تكون إلا بالتغلب و الغلب إنما يكون بالعصبية " الملك إنما يحصل بالتغلب و التغلب إنما يكون بالعصبية " و أيضا " و لما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب و جب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها و يتم الرياسة لأهلها، فإذا و جب ذلك تعيين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم " (ابن خلدون، 1965، ص 598، 599).

و يميز ابن خلدون بين نوعين من العصبية عصبية عامة و أخرى خاصة فالعامة تكون أكثر اتساعا و أقل ترابطا و يجمعها نسب عام، في حين أن العصبية الخاصة يجمعها نسب خاص أو قريب فتشكل عصبية خاصة و هو يقول في هذا الصدد " و النعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص و من أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب الحمية " (ابن خلدون، 1965، ص 230).

و من هنا ستكون العصبية عند ابن خلدون بمثابة " رابطة دفاع أو قوة مواجهة، تنتظم العلاقات الخارجية للمجموعات المتساكنة في البادية، علاقاتها بعضها مع بعض، و علاقتها مع الدولة " (الجابري، 1994، ص 165)؛ و لأن بحث ابن خلدون متمركزا حول الدولة و الدولة عنده تتركز هي الأخرى على العصبية ، ما جعله يعتمد عليها في تفسير حوادث التاريخ الإسلامي إلا أن ما يؤكد عليه الدارسين

للفكر الخلدوني هو أن اهتمام ابن خلدون بالعصبية جاء من جانب واحد و هو الجانب السياسي أو كما يقول الجابري أن ما كان " يهتم ابن خلدون في العصبية هو النتائج السياسية التي تترتب عليها في أعلى درجات وجودها، و أرقى مراحل تطورها، أي تلك المرحلة التي تصبح فيها العصبية عبارة عن اتفاق الأهواء على المطالبة" (الجابري، 1994، ص 166) .

و من المنظور الخلدوني العصبية شعور داخلي يربط بين أفراد القبيلة في حالة تعرض قبيلتهم للعدوان و حتى في حالة تعرض أحد أفرادها للعدوان فهم يعتبرونه اعتداء على القبيلة كلها، هذا الشعور يولد التلاحم و التعاون لمواجهة الأخطار و من هنا تعمل العصبية على تقوية رابطة التعاون ، غير أن تلك الرابطة تضل ضعيفة ما لم تكن هناك شخصية تكون هي الرئيس و تعمل على قيادة الجميع و هذا لا يتم إلا عن طريق الغلب سواء بالنسبة لتصارع العصبيات المختلفة أو بالنسبة للعصبيات الفرعية بالنسبة للعصبية الأصلية لأن " الرياسة لا تكون إلا بالغلب، و الغلب إنما يكون بالعصبية ... فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان و الإلتحاق" (ابن خلدون، 1965، ص 231) .

قلنا أن العصبية هي بمثابة المحرك الأول لنشأة الدولة لكن هي وحدها غير كافية من الناحية الأخلاقية في المجتمع الإسلامي لأن " العصبية كفكرة مجردة قد تكون النقيض لمفهوم الخير العام المستمد من الشريعة المنزل، و لذا فإن ابن خلدون كان يرى بأن لا إمكانية لنشوء الدول المستقرة ما لم يتظافر الخير العام و الشريعة مع العصبية بشكل من الأشكال" (حوراني، 1968، ص 36) .

يرى ابن خلدون أن العلاقة بين الدين و العصبية هي علاقة تآزر و تعاضد و تكامل : الدين يزيد من قوة العصبية بالتخفيف من مظاهر التعصب و العصبية من جهتها تمنح الدعوة الدينية قوة و فعالية، فهو يلعب دورا مهما في توطيد دعائم الدولة لأنه يذهب التنافس بين الناس و يعمل على التآليف بين قلوبهم، و كذا صرف طبيعته العدوانية من أجل نشر دعوة التوحيد و إقامة مجتمع أفضل " فإذا قام فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على أمر الله و يذهب عنهم مذمومات الأخلاق و يأخذهم بمحمودها، و يؤلف كلمتهم لإظهار الحق ، ثم اجتمعهم و حصل لهم التغلب و الملك" (ابن خلدون، 1965، ص

626) . إذن الدين لا يقضي على العصبية و إنما يعمل على نقلها من إطارها الضيق المتعلق بالتعصب للنسب الخاص إلى إطار أوسع و هو متعلق بالتعصب للنسب العام و هو العقيدة الدينية .
و عليه لعب الإسلام هذا الدور من خلال دعوته إلى التوحيد و الإخاء و المساواة بين البشر فاستطاع أن يجمع القبائل و يوحدتها و يدفعها إلى نشر الإسلام، و من ثم قيام الدول الإسلامية الكبرى، و لقد خص ابن خلدون شكلان من الدول التي يكون للدين دورا في قيامها و تأسيسها فالشكل الأول يخص " الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق، و ذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب و التغلب إنما يكون بالعصبية و اتفاق الأهواء على المطالبة، و جمع القلوب و تأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه " (ابن خلدون، 1965، 636) ؛ أما الشكل الثاني فيتمثل في الدول التي تقيم عقيدتها على الشريعة الإلهية لتأمين المصالح الدينية و الدنيوية و هنا نجد نموذج دولة الخلافة .

حين نظر ابن خلدون لمسألة نشأة الدولة كانت انطلاقة قائمة على بعدين هما أن الدولة تنشأ من البداوة " إن الدولة تكون في أولها بدوية " و هنا تكون العصبية ركيزتها لأن العصبية تكون أكثر قوة في البداوة ، أما البعد الثاني فنشأة الدولة هي عبارة عن بداية للدورة التاريخية سياسيا و هذا لأن الدولة ستتقدم كموضوع و ثمرة للصراع و لهذا فهو يقرر أن العصبية لا يمكن لها أن تأسس الدولة إلا إذا توفر شرطان أساسيان و هما وجود عصبية عامة جامعة لعصبيات متفرقة و الشرط الثاني هو وقوع الدولة في طور الهرم .

5. الدولة وتطورها : من التأسيس إلى الاضمحلال

للدولة عند ابن خلدون أعمار طبيعية وهي تنتقل خلال عمرها الذي يمتد من 80 سنة إلى 120 سنة من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة ، و يرتبط كل شيء في تطور الدولة عند ابن خلدون بالعصبية و قوتها، فإذا كانت الدولة قوية العصبية اتسع نطاقها و امتدت حدودها و دام عهدها، أما إذا أصابها الضعف فإنه في تلك الحالة ستفقد الدولة قوتها،وهنا ينظر ابن خلدون إلى الدولة باعتبارها حكم

عصبية معينة ويفسر تطورها من خلال مستويات يتم التعبير عنها على هذا النحو: 1 الدولة هي صورة شخص يملك، 2 الدولة هي صورة عصبية تحكم، 3 الدولة هي صورة عصبية غالبية وأخرى مغلوقة.

في المستوى الأول نتحدث عن أطوار تطور الدولة وهي خمسة في نظر ابن خلدون تكون البداية بطور السعي إلى الملك و الظفر به بالغبلة و هذا بانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها و يكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب الجحد فهو في هذا الطور لا ينفرد دونهم بشيء منه، لأن ذلك راجع إلى العصبية التي بها حصل الملك و هي لم تزل بعد بجالها، و تظهر العصبية في هذا الطور كمحرك للتاريخ و صناعة له و موجهة لأحداثه، فالعلاقات في هذا الطور تتميز بالمساهمة و المشاركة، ثم تنتقل الدولة إلى الطور الثاني و هو " طور الاستبداد على قومه و الانفراد دونهم بالملك، في هذا الطور يعمل صاحب الدولة على اصطناع الرجال و اتخاذ الموالي و الصنائع، و الاستكثار من ذلك بجدع أنوف عصبية و عشيرته المقاسمين له في نسبه الضارين معه في الملك بمثل سهمه" .

أما الطور الثالث فهو " طور الفراغ و الدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال و تخليد الآثار و بعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية ... و تشييد المباني ... و إجازة الوفود ... و اعتراض (استعراض) جنوده ... فيباهي بهم الدول المسالمة و يرهب الدول المحاربة "، ثم يأتي الطور الرابع " طور القنوع و المسالمة، و يكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لأنظاره من الملوك و أمثاله، مقلدا للماضين من سلفه "، فالقوة في هذا الطور لم يعد هناك مبرر لوجودها ما يؤدي إلى شيوع ظاهرة التقليد و حذو النعل بالنعل ، و أخيرا يأتي الطور الخامس " طور الإسراف و التبذير ، و يكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات و الملاذ و الكرم على بطانته و في مجالسه ... فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسونه، و هادما لما كانوا يبنون، و في هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم و يستولي عليها المرض المزمن ، الذي لا تكاد تخلص منه، و لا يكون لها منه برء إلى أن تنقرض " (ابن خلدون، 1965، ص 493-496) .

كما يحدد ابن خلدون عمر الدولة في ثلاث أجيال ، وهنا سيأتي الحديث عن المستوى الثاني لتطور الدولة و في هذه الأجيال تتطور العصبية من القوة إلى الضعف و من الالتحام إلى الانحلال ، وهي كالتالي:

الجيل الأول من العصبية الحاكمة هو جيل بدوي بكل ما تحمله الكلمة من معنى كما أنه ذا قوة وبأس وهو الذي قام بالثورة والغزو، شخصية هذا الجيل تتميز بالقوة والشجاعة والدفاع عن الدولة بكل شراسة ، ورغم أنه سينتقل إلى حياة الحضرة يبقى " على خلق البداوة و خشونتتها و توحشها من شظف العيش و البسالة و الافتراس و الاشتراك بالجد ، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف و جانبهم مرهوب، و الناس لهم مغلوبين " (ابن خلدون، 1965، ص 486) .

أما **الجيل الثاني** فهو يختلف عن الأول لأنه ترى في أحضان الملك و الرئاسة أي أنه نشأ نشأة المجتمع الحضري و "لما كان الإنسان ابن عوائده و مألوفة لا ابن طبيعته و مزاجه ، فإن حال هذا الجيل ستكون مختلفة عن الجيل الأول و لهذا فحالته قد تحولت " من البداوة إلى الحضارة و من الشظف إلى الترف و الخصب و من الاشتراك في الجهد إلى إنفراد الواحد به و كسل الباقين عن السعي فيه " (ابن خلدون، 1965، ص 487) ومن ثمة يعتبر هذا الجيل جيل وسط فهو بقيت فيه بعض الخصال من البداوة كما

أنه لم يغرق بعد في ترف الحضارة وهنا تكون العصبية فيه لا تزال تحافظ على قوتها في حين أن **الجيل الثالث** وهو الأخير فإنه ينسى " عهد البداوة و الخشونة كأن لم تكن و يفقدون حلاوة العز و العصبية بما هم فيه من ملكة القهر و يبلغ فيهم الترف غايته " (ابن خلدون، 1965، ص 487)، و هنا تضعف العصبية و تسقط ما يؤدي بصاحب الدولة إلى طلب المساعدة من غيرهم فيستكثر بالموالي و تبدأ الدولة بالضعف إلى أن تذهب نهائياً .

لا تبقى العصبية بنفس القوة التي بدأت بها و التي على أساسها قامت الدولة و من هنا فزوال العصبية هو الإعلان الرسمي لزوال الدولة و إضعافها هذا ما يجعلنا نتساءل لماذا تفسد العصبية ؟ أو ماهي الأسباب التي تؤدي إلى زوال الدولة ؟ و تفسير ذلك عند ابن خلدون هو أنه و منذ اللحظة التي تنتهي فيها الحياة البدوية تبدأ القبائل بفقدان عصبيتهم، روح تضامنهم، فعاليتهم الاجتماعية و أخلاقهم كما أن

فساد العصبية راجع إلى استئثار رئيس العصبية بالملك و منعه لأفراد عصبته من التطاول للمساهمة و المشاركة و هذا الاستفراد بالملك حسب الجابري " لا يعني مطلقا فساد النسب فهو يظل قائما كما كان أول الأمر، و إنما يعني في الحقيقة فساد الأساس الحقيقي الموضوعي الذي قامت عليه العصبية و هو المساهمة و المشاركة في الفوائد المادية و المعنوية التي يحققها الملك لأصحابه " (الجابري، 1994، ص 177) .

فالانفراد بالجد يؤدي حتما إلى إضعاف تلاحم أهل العصبية ما يعمل على تفككها و عدم تلاحمها، أما السبب الثاني فهو راجع إلى الترف هذا الأخير يؤدي إلى زيادة نفقات الدولة ما يجعلها تصل إلى مرحلة عجز في دفع المال للجدد ، و من ثم يضعف الدفاع عن الذات وهنا يعمل الحاكم على فرض الضرائب و كل هذا سيصل بالدولة إلى الزوال ، إضافة إلى هذا و مثلما طبيعة الملك تقتضي الترف فهي كذلك تقتضي الدعة و الراحة ، و إذا أصبحت الراحة مألفا و خلقا و طبيعة فيهم سيؤدي إلى تربي الأجيال في غضارة العيش ، ما يؤدي إلى انقلاب خلق التوحش و نسيان عوائد البدو التي أدت إلى قيام الملك .

كانت هذه الأسباب التي أوردها ابن خلدون في تحليله لانهيار الدول و لكن ما يمكن التأكيد عليه أن هذه الأسباب هي تنطبق على الدولة القبلية التي تتحكم فيها العصبية القوية الغالبة التي تحميها و تدافع عنها و تضحى في سبيلها ، فهو ركز على الدول التي عايشها في عصره و شهد أسباب انهيارها .

6 . خاتمة:

ما يمكن استنتاجه في الأخير أن نظرية ابن خلدون في الدولة قامت على فكرة القوة و الغلبة و هذا بالعودة إلى فكرته في العصبية ، و لهذا فهو انطلق في تحليلاته من ظاهرة الاجتماع البشري ليصل إلى مناقشة كل الظواهر الاجتماعية المرتبطة بها، و التي تمثلت في فكرة ضرورة وجود الوازع للبشر هذا الوازع الذي تطور إلى أن أصبح يعرف بالسلطة الحاكمة ، ليصل بعد ذلك إلى فكرة العصبية القائمة على صلة الدم و التي مثلت أساس نشأة الدولة و قوتها ، لينتقل بعدها إلى أطور تطور الدولة من التأسيس إلى الهرم، و من خلال هذا العرض المتدرج قدم ابن خلدون نظرية في نشأة الدول اعتبرت من أهم النظريات في الفكر السياسي، كما يمكننا القول أن الفكر الخلدوني تؤسسه ثلاث مفاهيم مترابطة هي العصبية، الدولة ،

الحضارة وفهمها وتحديد معناها عند ابن خلدون يعني بالضرورة فهم النظرية الخلدونية في الاجتماع والسياسة.

نستطيع القول كذلك أن الدولة عند ابن خلدون هي مدة حكم أسرة مالكة في زمن معين ولهذا فهو ينظر إلى الدولة من زاويتين، فهي امتداد في الزمان وامتداد في المكان لحكم عصبية معينة، فهي تمتد زمنيا بمدى قدرتها على المحافظة على قوة عصبيتها، كما تمتد مكانيا كذلك بمدى قدرتها وقوتها على الغزو وإخضاع الأوطان الأخرى وضمها إلى حكمها وتحت سلطاتها، كذلك علينا أن لا ننسى أن اتساع رقعة الدولة لا يقتصر فقط على مدى قوة والتحام العصبية الغازية، فهو مرتبط أيضا بمدى ضعف العصبية في المناطق المراد الاستيلاء عليها، فكلما كانت ضعيفة كلما سهلت عملية الغزو والعكس صحيح.

وكتيجة نهائية يمكن القول أن آراء ابن خلدون في السياسة والاجتماع وال عمران والتاريخ ما هي إلا عملية استنطاق لتجربتين الأولى هي تجربته الشخصية من خلال ماتولاه من مهام في بلاط الحكم، والثانية هي تجربة العصر الذي عاش فيه، بالإضافة إلى اطلاعه الواسع لما تضمنته كتب التاريخ السياسي الإسلامي، ولهذا إذا أردنا أن نفهم الفكر الخلدوني ما علينا إلا أن نقرؤه قراءة كلية لا تجزئية لأنه كل متكامل فالعمران والاجتماع البشري بأشكاله يحيلنا إلى العصبية، وهذه تحيلنا إلى الدولة وتشكلها وكذا زواها وأهبارها.

7. قائمة المراجع:

* هو عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي (1332 . 1406) و لد في تونس من أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس، وهو سليل أسرة عريقة من بيت رياسة وعلم ، تلقى تعليمه في جامعة الزيتونة، حيث كان الطلبة يتلقون دروسا في التفسير والحديث والعلوم الطبيعية وغيرها من العلوم، وفي سنة 1347 استولى بنو مرين على تونس وأتاح هذا الغزو لعبد الرحمن ابن خلدون أن يدرس على يد مشايخ جدد كان أغلبهم قد نزحوا من الأندلس وكان ابن خلدون يؤثر الأبلي على كل مشيخته وهو يقول عنه أنه " شيخ العلوم العقلية"، بلغ شأننا عظيما إذ كان رجل سياسة وعلم، ولي الكتابة و الوساطة بين الملوك في بلاد المغرب و الأندلس ثم انتقل إلى مصر، وفي الأزهر كان يدرّس الحديث والفقهاء المالكي ويشرح نظريته في العمران وأسس الملك ونشأة الدول، قدم أهم المصادر للفكر العالمي و هو كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخير في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (انظر عنان، 1933، ص ص 13، 35، 64) .

- 1- ابن خلدون، عبد الرحمن، (1965)، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي : لجنة البيان العربي، القاهرة ، مصر.
- 2- ابن منظور، (د/ت)، لسان العرب، مادة (عصب)، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- 3- الأزرق، أبي عبد الله، (1977)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق و تعليق علي النشار، ج1، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق.
- 4- الجابري، محمد عابد، (1994)، ابن خلدون العصبية و الدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان
- 5- النبهان، محمد فاروق، (1998) الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان.
- 6- حوراني، ألبرت، (1968)، الفكر العربي في عصر النهضة ، تر: كريم عزقول ، دار النهار، بيروت، لبنان
- 7- عنان، محمد عبد الله، (1933)، ابن خلدون حياته و تراثه الفكري، مطبعة الكتب المصرية بالقاهرة، مصر.
- 8- مغربي، عبد الغني، (1988)، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر : محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .
- 9- الجبائي، محمد، (2004)، الدينامية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون، تر: فاطمة الجبائي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.